(١)

باب بيان فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب

قال المصنف رحمه الله تعالى: (باب بيان فضل التوحيد وما يكفِّر من الذنوب).

ش: (باب) خبر مبتدأ محذوف تقديره هذا.

قلت: ويجوز أن يكون مبتدأ خبره محذوف تقديره هذا.

و(ما) يجوز أن تكون موصولة والعائد محذوف، أي: وبيان الذي يكفره من الذنوب، ويجوز أن تكون مصدرية، أي: وتكفيره الذنوب، وهذا الثاني أظهر.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (**وقول الله تعالى**: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢]).

ش: قال ابن جرير: حدثنى المثنى . . . وساق بسنده عن الربيع بن أنس قال: الإيمان: الإخلاص لله وحده.

وقال ابن كثير فى الآية: أى هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده ولم يشركوا به شيئًا هم الآمنون يوم القيامة، المهتدون فى الدنيا والآخرة.

وقال زيد بن أسلم وابن إسحاق [١]: هذا من الله على فصل القضاء بين إبراهيم وقومه.

وعن ابن مسعود: لما نزلت هذه الآية قالوا: فأينا لم يظلم نفسه؟

فقال عليه السلام: «**ليس بذلكم، ألم تسمعوا إلى قول لقمان**: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾».

وساقه البخارى بسنده فقال: حدثنا عمر بن حفص حدثنا أبي حدثنا الأعمش حدثنى إبراهيم عن علقمة عن عبد الله رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:٨٢] قلنا: يا رسول الله، أينا لا يظلم نفسه؟ قال: «**ليس كما تقولون، لم يلبسوا إيمانهم بظلم: بشرك. أوَ لم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه**: ﴿يَـٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ

(١) هو: محمد بن إسحاق بن يسار، أبو بكر القرشي، ولد بالمدينة سنة (٨٥هـ) ثم رحل إلى غيرها، كان عالمًا صدوقًا لاسيما في المغازي، أول من دون العلم بالمدينة وذلك قبل مالك وذويه، وكان في العلم بحرًا عجاجًا، ولكنه ليس بالمجود كما ينبغي. توفي ببغداد سنة (١٥٠هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٧/ ٣٣).

إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾» (١) .

وهذا الحديث في (الصحيح) و(المستدرك) وغيرهما .

ولأحمد بنحوه عن عبد الله قال: لما نزلت ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام :٨٢] شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله فأينا لا يظلم نفسه؟ قال: «**إنه ليس الذى تعنون . ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح:** ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] **إنما هو الشرك**» (٢) .

وعن عمر أنه فسره بالذنب . فيكون المعنى: الأمن من كل عذاب . وقال الحسن والكلبي: أولئك لهم الأمن فى الآخرة، وهم مهتدون فى الدنيا .

قال شيخ الإسلام: والذى شق عليهم أنهم ظنوا أن الظلم المشروط هو ظلم العبد نفسه، وأنه لا أمن ولا اهتداء إلا لمن لم يظلم نفسه، فبين لهم النبى ﷺ ما دلهم على أن الشرك ظلم فى كتاب الله، فلا يحصل الأمن والاهتداء إلا لمن لم يلبس إيمانه بهذا الظلم، فإن من لم يلبس إيمانه بهذا الظلم كان من أهل الأمن والاهتداء، كما كان من أهل الاصطفاء فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ [فاطر :٣٢] .

وهذا لا ينفى أن يؤاخذ أحدهم بظلمه لنفسه بذنب إذا لم يتب كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة :٧-٨] .

وقد سأل أبو بكر الصديق رضي الله عنه النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أينا لم يعمل سوءًا؟ فقال: «**يا أبا بكر ألست تنصب؟ ألست تحزن؟ أليس يصيبك اللأواء** (٣)**؟ فذلك ما تجزون به**» (٤) .

فبين: أنَّ المؤمن إذا مات دخل الجنة، **إذ قد يُجزى بسيئاته فى الدنيا بالمصائب .**

قال: فمن سلم من أجناس الظلم الثلاثة: الشرك، وظلم العباد . وظلمه لنفسه بما دون

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الإيمان، باب: ظلم دون ظلم، حديث (٣٢)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: صدق الإيمان وإخلاصه، حديث (١٢٤).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٣٧٨)، حديث (٣٥٨٩).

(٣) الشدة وضيق المعيشة. انظر: النهاية (٤/ ٢٢١).

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١/ ١١)، حديث (٦٨)، وأبو يعلى في مسنده (١/ ٩٧)، حديث (٩٨)، وابن حبان في صحيحه (١/ ١٨٩)، حديث (٢٩٢٦)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٧٨)، حديث (٤٤٥٠)، والبيهقي في الكبرى (٣/ ٣٧٣)، حديث (٦٣٢٨). وهو صحيح بمجموع طرقه. وانظر صحيح الترغيب (٣٤٣٠).

الشرك كان له الأمن التام والاهتداء التام. ومن لم يسلم من ظلمه لنفسه كان له الأمن والاهتداء مطلقًا، بمعنى أنه لابد أن يدخل الجنة كما وُعِد بذلك فى الآية الأخرى، وقد هداه الله إلى الصراط المستقيم الذى تكون عاقبته فيه إلى الجنة. ويحصل له من نقص الأمن والاهتداء بحسب ما نقص من إيمانه بظلمه لنفسه.

وليس مراد النبى ﷺ بقوله: «**إنما هو الشرك**» أن من لم يشرك الشرك الأكبر يكون له الأمن التام والاهتداء التام؛ فإن أحاديثه الكثيرة مع نصوص القرآن تبين أن أهل الكبائر مُعرَّضون للخوف، لم يحصل لهم الأمن التام والاهتداء التام اللذين يكونون بهما مهتدين إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم، من غير عذاب يحصل لهم بل معهم أصل الاهتداء إلى هذا الصراط، ومعهم أصل نعمة الله تعالى عليهم ولا بد لهم من دخول الجنة.

وقوله: «**إنما هو الشرك**» إن أراد الأكبر، فمقصوده أن من لم يكن من أهله فهو آمن مما وُعد به المشركون من عذاب الدنيا والآخرة. وإن كان مراده جنس الشرك فيقال: ظلم العبد لنفسه، كبخله -لحب المال- ببعض الواجب هو شرك أصغر. وحبه ما يبغضه الله تعالى حتى يقدم هواه على محبة الله شرك أصغر ونحو ذلك. فهذا فاته من الأمن والاهتداء بحسبه. ولهذا كان السلف يُدخلون الذنوب فى هذا الشرك بهذا الاعتبار. انتهى ملخصًا.

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢] قال الصحابة: وأينا يا رسول الله لم يلبس إيمانه بظلم؟ قال: «**ذلك الشرك، ألم تسمعوا قول العبد الصالح ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾**» فلما أشكل عليهم المراد بالظلم فظنوا أن ظلم النفس داخل فيه، وأن من ظلم نفسه -أيّ ظلم كان- لم يكن آمنًا ولا مهتديًا. أجابهم صلوات الله وسلامه عليه بأن الظلم الرافع للأمن والهداية على الإطلاق هو الشرك، وهذا والله هو الجواب الذى يشفي العليل ويروي الغليل؛ فإن الظلم المطلق التام هو الشرك، الذى هو وضع العبادة فى غير موضعها، والأمن والهدى المطلق: هما الأمن فى الدنيا والآخرة، والهدى إلى الصراط المستقيم.

فالظلم المطلق التام رافع للأمن والهدى المطلق التام. ولا يمنع ذلك أن يكون مطلق الظلم مانعًا من مطلق الأمن ومطلق الهدى. فتأمله. فالمطلق للمطلق، والحصة للحصة. انتهى ملخصًا.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل» أخرجاه [١]).

ش: عبادة بن الصامت: ابن قيس الأنصاري الخزرجي، أبو الوليد، أحد النقباء بدريٌّ مشهور مات بالرملة [٢] سنة أربع وثلاثين، وله اثنتان وسبعون سنة، وقيل: عاش إلى خلافة معاوية.

قوله: «من شهد أن لا إله إلا الله» أي: من تكلم بها عارفًا بمعناها، عاملاً بمقتضاها باطنًا وظاهرًا، فلا بد في الشهادتين من العلم واليقين والعمل بمدلولها، كما قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] وقوله ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦].

أما النطق بها من غير معرفة بمعناها ولا يقين ولا عمل بما تقتضيه من البراءة من نفي الشرك، وإخلاص القول والعمل: قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح - فغير نافع بالإجماع.

قال القرطبي في «المفهم على صحيح مسلم» [٣]: باب لا يكفي مجرد التلفظ بالشهادتين بل لا بد من استيقان القلب.

هذه الترجمة تنبيه على فساد مذهب غلاة المرجئة القائلين بأن التلفظ بالشهادتين كاف في الإيمان، وأحاديث هذا الباب تدل على فساده بل هو مذهب معلوم الفساد من الشريعة لمن وقف عليها. ولأنه يلزم منه تسويغ النفاق، والحكم للمنافق بالإيمان الصحيح. وهو باطل قطعًا. انتهى.

وفي هذا الحديث ما يدل على هذا، وهو قوله: **«من شهد»** فإن الشهادة لا تصح إلا إذا كانت عن علم ويقين وإخلاص وصدق.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١] الآية، حديث (٣٤٣٥)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة، حديث (٢٨).

(٢) الرملة: مدينة بفلسطين بالقرب من اللُّد، بين يافا والقدس.

(٣) المفهم في شرح مختصر صحيح مسلم للإمام أحمد بن عمر بن إبراهيم أبي العباس الأنصاري الأندلسي ثم القرطبي المالكي الفقيه، عرف بابن المزين من أعيان فقهاء المالكية، كان من الأئمة المشهورين، والعلماء المعروفين، جامعًا لمعرفة علوم منها علم الحديث والفقه والعربية وغير ذلك. توفي سنة (٦٥٦هـ). انظر: الديباج المذهب ص (٦٨).

قال النووي: هذا حديث عظيم جليل الموقع، وهو أجمع - أو من أجمع - الأحاديث المشتملة على العقائد؛ فإنه ﷺ جمع فيه ما يُخرج من ملل الكفر على اختلاف عقائدهم وتباعدها، فاقتصر ﷺ فى هذه الأحرف على ما يباين به جميعهم. انتهى.

ومعنى: لا إله إلا الله أي: لا معبود بحق إلا الله. وهو فى مواضع من القرآن، ويأتيك فى قول البقاعى [1] صريحًا.

قوله: «وحده» تأكيد للإثبات «لا شريك له» تأكيد للنفي. قال الحافظ: كما قال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٣] وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥] وقال: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٦٥] فأجابوه ردًّا عليه بقولهم: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [الأعراف:٧٠].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج:٦٢].

فتضمن ذلك نفى الإلهية عما سوى الله، وهي العبادة. وإثباتها لله وحده لا شريك له.

والقرآن من أوله إلى آخره يبين هذا ويقرره ويرشد إليه. فالعبادة بجميع أنواعها إنما تصدر عن تألُّه القلب بالحب والخضوع والتذلل رغبًا ورهبًا، وهذا كله لا يستحقه إلا الله تعالى، كما تقدم فى أدلة هذا الباب وما قبله.

فمن صرف من ذلك شيئًا لغير الله فقد جعله ندًّا لله، فلا ينفعه مع ذلك قول ولا عمل.

ذكر كلام العلماء فى معنى الإله:

قد تقدم كلام ابن عباس.

وقال الوزير أبو المظفر فى الإفصاح: قوله: «**شهادة أن لا إله إلا الله**» **يقتضى أن يكون** الشاهد عالمًا بأنه لا إله إلا الله، كما قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد:١٩]

قال: واسم (الله) مرتفع بعد (إلا) من حيث إنه الواجب له الإلهية، فلا يستحقها غيره سبحانه.

---

(١) هو: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط، الخرباوي، البقاعي، الشافعي، نزيل القاهرة ثم دمشق: عالم أديب، مفسر محدث، مؤرخ، ولد بقرية خربة في لبنان، ونشأ بها، ثم تحول إلى دمشق، ثم دخل بيت المقدس، ثم القاهرة. من مصنفاته: نظم الدرر في تناسب الآي والسور في التفسير، وله ديوان شعر سماه إشعار الواعي بأشعار البقاعي. توفي سنة (٨٨٥هـ).

قال: وجملة الفائدة فى ذلك: أن تعلم أن هذه الكلمة مشتملة على الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، فإنك لما نفيت الإلهية وأثبتَّ الإيجاب لله تعالى كنت ممن كفر بالطاغوت وآمن بالله.

وقال ابن القيم فى «البدائع» ردًا لقول من قال: إن المستثنى مخرج من المنفي. قال ابن القيم: بل هو مخرجٌ المنفي وحكمه، فلا يكون داخلاً فى المنفى، إذ لو كان كذلك لم يدخل الرجل فى الإسلام بقوله: لا إله إلا الله لأنه لم يُثبت الإلهية لله تعالى. وهذه أعظم كلمة تضمنت بالوضع نفي الإلهية عما سوى الله وإثباتها له بوصف الاختصاص، فدلالتها على إثبات إلهيته أعظم من دلالة قولنا: (الله إله) ولا يستريب أحد فى هذا ألبتة. انتهى بمعناه.

قلت: ولا ريب أنّه لم يدخل في المنفي أصلً؛ لأنَّ المراد من هذه الكلمة: إفرادُه تعالى بالإلهية في قلب الموحِّد وقوله وعمله، كما دلَّت عليه الآيات المُحكمات، كما أخبر عن دعوة رسله ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [المؤمنون: ٣٢] فنفوا الإلهية عمَّا سوى الله تعالى، وأثبتوها لله وحده.

فإنه تعالى هو المتصف بتفرده بالإلهية أزلاً وأبدًا؛ كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢]. وأخبر تعالى عن المشركين، أنهم قالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ﴾ [الأعراف: ٧٠].

أرادوا أن يدخلوه في جملة آلهتهم في العبادة، وأنكروا أنْ تكون العبادةُ له وحده، مع معرفتهم أنَّ (لا إله إلاَّ الله) تبطلُ ذلك.

وتسويةُ آلهتهم بالله في العبادة: هو الشرك الأكبرُ، الذي يوجبُ الخلود في النار. فالموحِّدُ، مخالفٌ للمشرك في قوله وفعله ونيَّته. وهذا ظاهرٌ لا خفاء به بحمد الله.

وقال أبو عبد الله القرطبي فى تفسير (لا إله إلا الله) أى: لا معبود إلا هو.

وقال الزمخشرى: الإله: من أسماء الأجناس كالرجل والفرس، يقع على كل معبود بحق أو بباطل، ثم غلب على المعبود بحق.

قال شيخ الإسلام: الإله: هو المعبود المطاع، فإن الإله هو المألوه، والمألوه هو الذى يستحق أن يُعبد. وكونه يستحق أن يعبد هو بما اتصف به من الصفات التى تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحب، المخضوع له غاية الخضوع.

وقال رحمه الله تعالى: فإن الإله هو المحبوب المعبود الذى تألهه القلوب بحبها، وتخضع له وتذل له، وتخافه وترجوه، وتنيب إليه فى شدائدها، وتدعوه فى مهماتها،

وتتوكل عليه فى مصالحها، وتلجأ إليه وتطمئن بذكره، وتسكن إلى حبه، وليس ذلك إلا لله وحده، ولهذا كانت (لا إله إلا الله) أصدق الكلام، وكان أهلها أهل الله وحزبه، والمنكرون لها أعداءه وأهل غضبه ونقمته، فإذا صحت صح بها كل مسألة وحال وذوق، وإذا لم يصححها العبد فالفساد لازم له فى علومه وأعماله.

قال ابن القيم: الإله: هو الذى تألهه القلوب محبة وإجلالاً وإنابة، وإكرامًا وتعظيمًا وذلاً وخضوعًا وخوفًا ورجاء وتوكلاً.

وقال ابن رجب [(١)]: الإله: هو الذى يطاع فلا يعصى؛ هيبة له وإجلالاً، ومحبة وخوفًا ورجاء، وتوكلاً عليه، وسؤالاً منه ودعاء له، ولا يصلح ذلك كله إلا لله عز وجل، فمن أشرك مخلوقًا فى شيء من هذه الأمور التي هي من خصائص الإلهية كان ذلك قدحًا في إخلاصه فى قول (لا إله إلا الله) وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك.

وقال البِقَاعي: لا إله إلا الله أى: انتفى انتفاء عظيمًا أن يكون معبود بحق غير الملك الأعظم، فإن هذا العلم هو أعظم الذكرى المنجية من أهوال الساعة، وإنما يكون علمًا إذا كان نافعًا، وإنما يكون نافعًا إذا كان مع الإذعان والعمل بما تقتضيه، وإلا فهو جهل صِرْف.

وقال الطيبي [(٢)]: الإله: فِعَال بمعنى مفعول، كالكتاب بمعنى المكتوب، من أله إلهة أى: عبد عبادة.

قال الشارح [(٣)]: وهذا كثير فى كلام العلماء وإجماع منهم أن الإله هو المعبود خلافًا لما يعتقدُه عُبَّادُ القبور وجهلة المتكلمين من أنَّ معناه: هو الخالق والقادر على الاختراع، ونحو ذلك. ويظنون أنَّهم إذا قالوها فقد أتوا من التوحيد بالغاية القُصوى، ولو فعلو ما فعلوا: من عبادة غير الله كدعوة الأموات، والاستغاثة بهم في الكربات والنذر لهم في المُلِمَّات، إلى غير ذلك من أنواع العبادات.

---

(١) هو: الإمام الحافظ أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب البغدادي، الدمشقي، الحنبلي، ولد ببغداد سنة (٧٣٦هـ): محدث، حافظ، فقيه، أصولي، مؤرخ. قدم مع والده إلى دمشق، سمع بمكة ومصر. له مؤلفات تبلغ ٣٣ جزءًا ورسالة، منها: ذم الخمر، شرح البخاري، فضائل الشام، القواعد الفقهية، اللطائف في الوعظ، توفى سنة (٧٩٥هـ).

(٢) هو: الإمام أحمد بن على بن أحمد القاضي أبو العباس الطيبي، قاضي الطيب. من فقهاء الشافعية، ولد سنة (٤٤٤هـ) واستشهد بالطيب يعد سنة (٥٠٠هـ).

(٣) هو: الإمام سليمان بن عبد الله صاحب كتاب: تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد. وقد تقدمت ترجمته في أول الكتاب.

وما شعروا أنَّ مُشركي العرب وغيرهم هم يُشاركونهم في الإقرار بهذا المعنى ويعتقدون أنَّ الله هو الخالقُ القادر على الاختراع، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] وقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩].

فأخبر تعالى عنهم: أنَّهم اتخذوا الأولياء من دونه، وقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] فتبيَّن لمن كان أبو جهلٍ ورءوسُ الكفرِ من قريشٍ وغيرهم أعلَمَ منه بمعنى لا إله الله!!

قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٥-٣٦] فعرفوا أنَّها تدلُ على ترك عبادة معبوداتهم.

قلتُ: ودلالتُها على هذا دلالةُ تضمُّن، وأنَّ ذلك يقتضي إخلاص العبادة لله وحده، فدلالتُها على نفي الآلهة وعبادتها، وإفراد الله تعالى بالعبادة دلالةُ مطابقةٍ.

فدلت (لا إله إلا الله) على نفي الإلهية عن كل ما سوى الله تعالى كائنًا من كان، وإثبات الإلهية لله وحده دون كل ما سواه، وهذا هو التوحيد الذى دعت إليه الرسل ودل عليه القرآن من أوله إلى آخره، كما قال تعالى عن الجن: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١-٢].

فلا إله إلا الله لا تنفع إلا من عرف مدلولها نفيًا وإثباتًا، واعتقد ذلك وقبله وعمل به.

وأما من قالها من غير علم واعتقاد وعمل، فقد تقدم فى كلام العلماء أن هذا جهل صرف، فهى حجة عليه بلا ريب.

فقوله فى الحديث: «وحده لا شريك له» تأكيد وبيان لمضمون معناها. وقد أوضح الله تعالى ذلك وبينه فى قصص الأنبياء والمرسلين في كتابه المبين.

فما أجهل عُبّاد القبور بحالهم! وما أعظم ما وقعوا فيه من الشرك المنافى لكلمة الاخلاص لا إله إلا الله! فإن مشركي العرب ونحوهم جحدوا لا إله إلا الله لفظًا ومعنى. وهؤلاء المشركون أقروا بها لفظًا وجحدوها معنى.

فتجد أحدهم يقولها وهو يأله غير الله بأنواع العبادة، كالحب والتعظيم، والخوف والرجاء والتوكل والدعاء، وغير ذلك من أنواع العبادة. بل زاد شركهم على شرك العرب بمراتب، فإن أكثرهم إذا وقع فى شدة أخلص الدعاء لغير الله تعالى، ويعتقدون أنه أسرع فرجًا من الله، بخلاف حال المشركين الأولين، فإنهم يشركون في الرخاء، وأما فى

الشدائد فإنما يخلصون لله وحده، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] الآية، فبهذا يتبين أن مشركي أهل هذه الأزمان أجهل بالله وبتوحيده من مشركي العرب ومن قبلهم.

وقوله: «**وأن محمدًا عبده ورسوله**» أي وشهد بذلك، وهو معطوف على ما قبله على نية تكرار العامل.

ومعنى العبد هنا: المملوك العابد، أي أنه مملوك لله تعالى، والعبودية الخاصة وصْفه، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦] فأعلى مراتب العبد: العبودية الخاصة والرسالة.

فالنبي محمد ﷺ أكمل الخلق فى هاتين الصفتين الشريفتين. وأما الربوبية والإلهية فهما حق الله تعالى، لا يشاركه فى شيء منهما مَلَك مقرب ولا نبيّ مرسل.

وقوله: «**عبده ورسوله**» أتى بهاتين الصفتين وجمعهما دفعًا للإفراط والتفريط، فإن كثيرًا ممن يدعي أنه من أمته أفرط بالغلو قولاً وفعلاً، وفرط بترك متابعته، واعتمد على الآراء المخالفة لما جاء به، وتعسف فى تأويل أخباره وأحكامه، بصرفها عن مدلولها والصدف عن الانقياد لها مع اطراحها فإن شهادة أن محمدًا عبده ورسوله تقتضي الإيمان به وتصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والانتهاء عما عنه زجر، وأن يُعظَّم أمره ونهيه، ولا يقدم عليه قول أحد كائنًا من كان، والواقع اليوم وقبله خلاف ذلك، والله المستعان.

وروى الدارميُّ فى مسنده عن عبد الله بن سلام رضى الله عنه أنه كان يقول: إنا لنجد صفة رسول الله ﷺ: «**إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وحرزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميته المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب بالأسواق، ولا يجزي بالسيئة مثلها، ولكن يعفو ويتجاوز، لن أقبضه حتى يقيم الملة المتعوجة بأن يشهدوا أن لا إله إلا الله، يفتح به أعينًا عميًا وآذانًا صمًا وقلوبًا غلفًا**».

قال عطاء بن يسار [1]: وأخبرنى أبو واقد الليثى أنه سمع كعبًا يقول مثل ما قال ابن سلام.

قوله: «**وأن عيسى عبد الله ورسوله**» أى خلافًا لما يعتقده النصارى أنه الله أو ابن الله،

---

(١) هو: عطاء بن يسار، أبو محمد الهلالي المدني، مولى ميمونة زوج النبي ﷺ، كان بحق إمامًا فقيها واعظًا مذكرًا ثبتا حجة كبير القدر، حدث عن أبي أيوب وزيد وعائشة وأبي هريرة وغيرهم. توفي سنة (٩٤هـ) بالإسكندرية. انظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٤٨).

أو ثالث ثلاثة؛ تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١].

فلا بد أن يشهد أن عيسى عبد الله ورسوله على علم ويقين بأنه مملوك لله، خلقه من أنثى بلا ذكر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] فليس ربًّا ولا إلهًا. سبحان الله عما يشركون. قال تعالى ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ۝ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩-٣٠].

وقال: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٧٢].

ويشهد المؤمن أيضًا ببطلان قول أعدائه اليهود: إنه ولد بغي، لعنهم الله تعالى. فلا يصح إسلام أحد علم ما كانوا يقولونه حتى يتبرأ من قول الطائفتين جميعًا في عيسى عليه السلام، ويعتقد ما قاله الله تعالى فيه: أنه عبد الله ورسوله.

قوله: «وكلمته» إنما سُمي عيسى عليه السلام كلمته لوجوده بقوله تعالى: ﴿كُن﴾ كما قاله السلف من المفسرين.

قال الإمام أحمد في الرد على الجهمية (١): الكلمة التي ألقاها إلى مريم حين قال له: ﴿كُن﴾ فكان عيسى بكن وليس عيسى هو «كن» ولكن كان بكن. فكن من الله تعالى قول، وليس «كن» مخلوقًا، وكذب النصارى والجهمية على الله في أمر عيسى. انتهى.

وقوله: «ألقاها إلى مريم» قال ابن كثير: خلقه بالكلمة التي أُرسل بها جبرائيل إلى مريم فنفخ فيها من روحه بأمر ربه عز وجل فكان عيسى بإذن الله عز وجل، فهو ناشئ عن الكلمة التي قال له كن فكان والروح التي أرسل بها جبرائيل عليه السلام.

قوله: «وروح منه» قال أبيّ بن كعب: عيسى روح من الأرواح التي خلقها الله تعالى

---

(١) هم أصحاب الجهم بن صفوان الترمذي، تبني مذهب شيخه الجعد بن درهم، وهذا أخذه عن طالوت اليهودي، الذي أخذه عن لبيد بن الأعصم الذي سحر النبي ﷺ، والجهمية خالفت الكتاب والسنة، وقالوا بأن الإنسان مجبور على أعماله ولا قدرة له أصلًا لا مؤثرة ولا كاسبة بل هو بمنزلة الجمادات، وقالوا: إن الجنة والنار تفنيان بعد دخول أهلها حتى لا يبقي موجود سوى الله تعالى. وزعموا أن الإيمان هو المعرفة بالله تعالى فقط، وان الكفر هو الجهل به فقط، وقالوا: لا فعل ولا عمل لأحد غير الله تعالى، وإنما تنسب الأعمال إلى المخلوقين على المجاز كما يقال: زالت الشمس ودارت الرحى، من غير أن يكونا فاعلين أو مستطيعين لما وصفتا به. وهذا المذهب أيضًا هو القائل بخلق القرآن. انظر: الفرق بين الفرق ص (٢٢١)، التعريفات ص (٨٠).

واستنطقها بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] بعثه الله إلى مريم فدخل فيها رواه عبد بن حميد وعبد الله بن أحمد فى زوائد المسند، وابن جرير وابن أبى حاتم وغيرهم.

قال الحافظ: ووصفه بأنه منه، فالمعنى: أنه كائن منه، كما فى قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] فالمعنى أنه كائن منه، كما أن معنى الآية الأخرى أنه سخر هذه الأشياء كائنة منه أي أنه مكوِّن ذلك وموجده بقدرته وحكمته.

قال شيخ الإسلام: المضاف إلى الله تعالى إذا كان معنى لا يقوم بنفسه ولا بغيره من المخلوقات وجب أن يكون صفة لله تعالى قائمة به، وامتنع أن تكون إضافتها إضافة مخلوق مربوب.

فإذا كان المضاف عينًا قائمة بنفسها كعيسى وجبرائيل عليهما السلام وأرواح بني آدم امتنع أن تكون صفة لله تعالى؛ لأن ما قام بنفسه لا يكون صفة لغيره، لكن الأعيان المضافة إلى الله تعالى على وجهين:

أحدهما: أن تضاف إليه لكونه خلقها وأبدعها، فهذا شامل لجميع المخلوقات، كقولهم: سماء الله، وأرض الله. فجميع المخلوقين عبيد الله، وجميع المال مال الله.

الوجه الثانى: أن يضاف إليه لما خصه به من معنى يحبه ويأمر به ويرضاه، كما خص البيت العتيق بعبادة فيه لا تكون فى غيره. وكما يقال عن مال الفيء والخمس: هو مال الله ورسوله.

ومن هذا الوجه: فعباد الله هم الذين عبدوه وأطاعوا أمره. فهذه إضافة تتضمن ألوهيته وشرعه ودينه، وتلك إضافة تتضمن ربوبيته وخلقه. انتهى ملخصًا.

قوله: «والجنة حق والنار حق» أى: وشهد أن الجنة التى أخبر بها تعالى فى كتابه أنه أعدها للمتقين حق، ثابتة لا شك فيها، وشهد أن النار التى أخبر بها تعالى فى كتابه أنه أعدها للكافرين حق كذلك ثابتة، كما قال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١] وقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤] وفى الآيتين ونظائرهما: دليل على أن الجنة والنار مخلوقتان الآن، خلافا للمبتدعة. وفيهما: الإيمان بالمعاد.

وقوله: «أدخله الله الجنة على ما كان من العمل» هذه الجملة جواب الشرط وفى رواية: **«أدخله الله الجنة من أى أبواب الجنة الثمانية شاء»**.

قال الحافظ: ومعنى قوله: **«على ما كان من العمل»** أى: من صلاح أو فساد؛ لأن أهل التوحيد لا بد لهم من دخول الجنة، ويحتمل أن يكون معنى قوله: **«على ما كان من العمل»** أي: يدخل أهل الجنة الجنة على حسب أعمال كل منهم فى الدرجات. انتهى.

قال القاضى عياض [(١)]: ما ورد فى حديث عبادة يكون مخصوصًا لمن قال ما ذكره النبي ﷺ وقرن بالشهادتين حقيقة الإيمان والتوحيد الذي ورد في حديثه فيكون له من الأجر ما يرجح على سيئاته، ويوجب له المغفرة والرحمة، ودخول الجنة لأول وهلة.

قال العلاّمةُ ابن القيم رحمه الله تعالى: والمقصود: أنَّ كلمة التوحيد إذا شهد بها المؤمنُ عارفًا لمعناها وحقيقته نفيًا وإثباتًا، مُتصفًا بموجبها قائمًا قلبه ولسانُه وجوارحه بشهادته، فهذه الكلمةُ من هذا الشاهد. أصلُها ثابتٌ راسخ في قلبه، وفروعُها متصلةٌ في السماء، وهي مخرجةٌ لثمرتها كلَّ وقت. انتهى.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (ولهما في حديث عتبان: «فإن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله»).

ش: قوله: (ولهما) أي البخاري ومسلم في صحيحيهما بكماله. وهذا طرف من حديث طويل أخرجه الشيخان.

وعتبان - بكسر المهملة بعدها مثناة فوقية ثم موحدة- ابن مالك بن عمرو بن العجلان الأنصاري، من بني سالم بن عوف، صحابي مشهور، مات فى خلافة معاوية.

وأخرج البخاري فى صحيحه بسنده عن قتادة قال: حدثنا أنس بن مالك أن النبي ﷺ ومعاذ رديفه على الرحل قال: **«يا معاذ»**، قال: لبيك يا رسول الله وسعديك. قال: **«يا معاذ»**، قال: لبيك يا رسول الله وسعديك. قال: **«يا معاذ»**، قال: لبيك يا رسول الله وسعديك - ثلاثًا - قال: **«ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله صدقًا من قلبه إلا حرمه الله تعالى على النار»** قال: يا رسول الله أفلا أخبر به الناس فيستبشروا؟ قال: **«إذًا يتكلوا»**، فأخبر بها معاذ عند موته تأثمًا [(٢)].

---

(١) هو: عياض بن موسى بن عياض أبو الفضل اليحصبي الأندلسي المالكي، فقيه محدث، جلس للمناظره وله نحو من ثمان وعشرين سنة، وولى القضاء وله خمس وثلاثون سنة له مصنفات منها: الشفا في مجلد، ترتيب المدارك وتقريب المسالك في ذكر فقهاء مذهب مالك، وكتاب العقيدة، وشرح حديث أم زرع، وجامع التاريخ، ومشارق الأنوار وغيرها. توفى رحمه الله سنة (٥٤٤هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٢١٣).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: العلم، باب: من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية أن لا يفهموا، حديث

وساق بسند آخر: حدثنا معتمر قال: سمعت أبي، قال: سمعت أنسًا قال: ذكر لي أن النبى ﷺ قال لمعاذ بن جبل: «**من لقى الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة**». قال: أفلا أبشر الناس؟ قال: «**لا؛ إنى أخاف أن يتكلوا**» (١).

قلت: فتبين بهذا السياق معنى شهادة أن لا إله إلا الله، وأنها تتضمن ترك الشرك لمن قالها بصدق ويقين وإخلاص.

قال شيخ الإسلام وغيره فى هذا الحديث ونحوه: إنها فيمن قالها ومات عليها، كما جاءت مقيدة بقوله: خالصًا من قلبه غير شاك فيها بصدق ويقين فإن حقيقة التوحيد انجذاب الروح إلى الله تعالى جملة، فمن شهد أن لا إله إلا الله خالصًا من قلبه دخل الجنة؛ لأن الإخلاص هو انجذاب القلب إلى الله تعالى بأن يتوب من الذنوب توبة نصوحًا، فإذا مات على تلك الحال نال ذلك فإنه قد تواترت الأحاديث بأنه «**يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان فى قلبه من الخير ما يزن شعيرة، وما يزن خردلة، وما يزن ذرة**». وتواترت بأن كثيرًا ممن يقول: لا إله إلا الله، يدخل النار، ثم يخرج منها.

وتواترت بأن الله حرم على النار أن تأكل أثر السجود من ابن آدم، فهؤلاء كانوا يصلون ويسجدون لله.

وتواترت بأن الله يحرم على النار من قال: لا إله إلا الله، ومن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، لكن جاءت مقيدة بالقيود الثقال.

وأكثر من يقولها لا يعرف الإخلاص، وأكثر من يقولها إنما يقولها تقليدًا أو عادة، ولم يخالط الإيمان بشاشة قلبه!

وغالب من يفتن عند الموت وفي القبور أمثال هؤلاء، كما فى الحديث: «**سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته**» (٢) وغالب أعمال هؤلاء إنما هو تقليد واقتداء بأمثالهم، وهم من أقرب الناس من قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] وحينئذ فلا منافاة بين الأحاديث.

---

(١٢٨)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة، حديث (٣٢).

(١) أخرجه البخاري، الكتاب والباب السابقين، حديث (١٢٩).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: الوضوء، باب: من لم يتوضأ إلا من العشي المثقل، حديث (١٨٤)، ومسلم، كتاب: الكسوف، باب: ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار، حديث (٩٠٥).

فإنه إذا قالها بإخلاص ويقين تام لم يكن فى هذه الحال مصرًا على ذنب أصلاً، فإن كمال إخلاصه ويقينه يوجب أن يكون الله أحب إليه من كل شيء، فإذًا لا يبقى فى قلبه إرادة لما حرم الله، ولا كراهة لما أمر الله.

وهذا هو الذي يحرم على النار وإن كانت له ذنوب قبل ذلك، فإن هذا الإيمان وهذا الإخلاص، وهذه التوبة وهذه المحبة وهذا اليقين، لا يتركون له ذنبًا إلا محي عنه كما يمحو الليل النهار، فإذا قالها على وجه الكمال المانع من الشرك الأكبر والأصغر، فهذا غير مُصرٍّ على ذنب أصلاً، فيُغفر له ويحرم على النار.

وإن قالها على وجه خلص به من الشرك الأكبر دون الأصغر، ولم يأت بعدها بما يناقض ذلك، فهذه الحسنة لا يقاومها شيء من السيئات، فيرجح بها ميزان الحسنات، كما فى حديث البطاقة [1] فيحرم على النار، ولكن تنقص درجته فى الجنة بقدر ذنوبه.

وهذا بخلاف من رجحت سيئاته بحسناته ومات مُصرًا على ذلك، فإنه يستوجب النار، وإن قال: لا إله إلا الله وخلص بها من الشرك الأكبر لكنه لم يمت على ذلك، بل أتى بعد ذلك بسيئات رجحت على حسنة توحيده، فإنه فى حال قولها كان مخلصًا لكنه أتى بذنوب أوهنت ذلك التوحيد والإخلاص فأضعفته، وقويت نار الذنوب حتى أحرقت ذلك، بخلاف المخلص المستيقن، فإن حسناته لا تكون إلا راجحة على سيئاته ولا يكون مُصرًا على سيئات، فإن مات على ذلك دخل الجنة.

وإنما يُخاف على المخلص أن يأتي بسيئة راجحة فيضعُف إيمانه فلا يقولها بإخلاص ويقين مانع من جميع السيئات، ويُخشى عليه من الشرك الأكبر والأصغر، فإن سلم من الأكبر بقي معه من الأصغر فيضيف إلى ذلك سيئات تنضم إلى هذا الشرك فيرجح جانب السيئات.

فإن السيئات تُضعف الإيمان واليقين، فيضعف قول: لا إله إلا الله، فيمتنع الإخلاص بالقلب، فيصير المتكلم بها كالهاذي أو النائم، أو من يُحسن صوته بالآية من القرآن من غير ذوق طعم وحلاوة، فهؤلاء لم يقولوها بكمال الصدق واليقين، بل يأتون بعدها بسيئات

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب: الإيمان، باب: ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله، حديث (٢٦٣٩)، وابن ماجه، حديث (٤٣٠٠) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص. وسيأتي المصنف بنصه قريبا بعد صفحات. وهو حديث صحيح، وانظر صحيح الجامع (١٧٧٦)، صحيح الترغيب (١٥٣٣)، الصحيحة (١٣٥).

تنقض ذلك بل يقولونها من غير يقين وصدق ويحيون على ذلك، ويموتون على ذلك، ولهم سيئات كثيرة تمنعهم من دخول الجنة، وإذا كثرت الذنوب ثقُل على اللسان قولُها وقسا القلب عن قولها، وكره العمل الصالح وثقُل عليه سماعُ القرآن، واستبشر بذكر غيره، واطمأن إلى الباطل، واستحلى الرفث، ومخالطة أهل الباطل، وكره مخالطة أهل الحق، فمثل هذا إذا قالها قال بلسانه ما ليس فى قلبه، وبفيه ما لا يصدِّقه عمله.

قال الحسن [(١)]: ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما وقر فى القلوب وصدّقته الأعمال. فمن قال خيرًا وعمل خيرًا قُبل منه، ومن قال خيرًا وعمل شرًّا لم يُقبل منه.

وقال بكر بن عبد الله المُزَنى [(٢)]: ما سبقهم أبو بكر رضي الله عنه بكثرة صيام ولا صلاة ولكن بشيء وقر في قلبه.

فمن قال: لا إله إلا الله ولم يَقُم بموجَبها بل اكتسب مع ذلك ذنوبًا، وكان صادقًا فى قولها موقنًا بها، لكن له ذنوب أضعفت صدقه ويقينه، وانضاف إلى ذلك الشرك الأصغر العملي، رجحت هذه السيئات على هذه الحسنة، ومات مُصرًّا على الذنوب. بخلاف من يقولها بيقين وصدق، فإنه إما أن لا يكون مُصرًّا على سيئة أصلاً، أو يكون توحيده المتضمن لصدقه ويقينه رجح حسناته.

والذين يدخلون النار ممن يقولها: إما أنهم لم يقولوها بالصدق واليقين التامين المنافيين للسيئات أو لرجحانها، أو قالوها واكتسبوا بعد ذلك سيئات رجحت على حسناتهم، ثم ضعُف لذلك صدْقهم ويقينهم، ثم لم يقولوها بعد ذلك بصدق ويقين تام؛ لأن الذنوب قد أضعفت ذلك الصدق واليقين من قلوبهم، فقولها من مثل هؤلاء لا يقوى على محو السيئات فترجحُ سيئاتهم على حسناتهم. انتهى ملخصًا.

وقد ذكر هذا كثير من العلماء كابن القيم وابن رجب وغيرهم.

---

(١) هو: الحسن بن أبي الحسن يسار البصري، الأنصاري مولى زيد بن ثابت، ويقال: مولى جابر بن عبد الله، ولد سنة (٢١هـ) بالمدينة المنورة، تابعي، ثقة. قال ابن حبان في الثقات: ... ورأى مائة وعشرين صحابيًّا، وهو مفسر فقيه عابد، إمام البصرة وحبر الأمة في زمنه، وكان يرسل كثيرًا أو يدلس. توفي سنة (١١٠هـ).

(٢) هو: بكر بن عبد الله بن عمرو الإمام القدوة الواعظ الحجة، أبو عبد الله المزني البصري أحد الأعلام يذكر مع الحسن البصري، وابن سيرين. حدث عن المغيرة بن شعبة وابن عباس وابن عمر وغيرهم. حدث عنه ثابت البنانى، وعاصم الحول، وسليمان التيمي وغيرهم. كان ثقة ثبتًا كثير الحديث حجة فقيهًا. توفي سنة (١٠٨هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٣٢).

قلت: وبما قرره شيخ الاسلام رحمه الله تعالى تجتمع الأحاديث.

قال: وفي الحديث: دليل على أنه لا يكفي في الإيمان النطق من غير اعتقاد وبالعكس.

وفيه: تحريم النار على أهل التوحيد الكامل.

وفيه: أن العمل لا ينفع إلا إذا كان خالصًا لوجه الله تعالى.

تنبيه: قال القرطبي في تذكرته: قوله في الحديث: «من إيمان» أي: من أعمال الإيمان التي هي من أعمال الجوارح، فيكون فيه دلالة على أن الأعمال الصالحة من الإيمان.

والدليل على أنه أراد بالإيمان ما قلناه، ولم يُرد مجرد الإيمان -الذي هو التوحيد ونفي الشركاء والإخلاص بقوله لا إله إلا الله - ما في الحديث نفسه من قوله «أخرجُوا» ثم بعد ذلك يقبض سبحانه قبضة فيُخرج قومًا لم يعملوا خيرًا قط يريد بذلك أهل التوحيد المجرد من الأعمال. انتهى ملخصًا من شرح سنن ابن ماجه.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «قال موسى عليه السلام: يا رب علمني شيئًا أذكرك وأدعوك به، قال: قل يا موسى: لا إله إلا الله. قال: كل عبادك يقولون هذا، قال: يا موسى لو أن السموات السبع وعامرهن غيري والأرضين السبع في كفة، ولا إله إلا الله في كفة، مالت بهن لا إله إلا الله» (١). **رواه ابن حبان والحاكم وصححه)**.

ش: أبو سعيد: اسمه: سعد بن مالك بن سنان بن عبيد الأنصاري الخزرجي، صحابي جليل وأبوه كذلك، استُصغر أبو سعيد بأُحد وشهد ما بعدها، مات بالمدينة سنة ثلاث أو أربع أو خمس وستين وقيل سنة أربع وسبعين.

قوله: (أذكرك) أي أثني عليك به (وأدعوك) أي أسألك به.

قوله: (قل يا موسى: لا إله إلا الله) فيه: أن الذاكر بها يقولها كلها، ولا يقتصر على لفظ الجلالة، ولا على «هو» كما يفعله غلاة جهال المتصوفة؛ فإن ذلك بدعة وضلالة.

قوله: (كل عبادك يقولون هذا) ثبت بخط المصنف بالجمع، والذى فى الأصول (يقول) بالإفراد مراعاة للفظة (كل).

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٢٠٨)، حديث (١٠٦٧٠)، وأبو يعلى في مسنده (٢/ ٥٢٨)، حديث (١٣٩٣)، وابن حبان في صحيحه (١٤/ ١٠٢)، حديث (٦٢١٨)، والحاكم في المستدرك (١/ ٧١٠)، حديث (١٩٣٦) من طريق دراج أبي السمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري. ودراج صدوق إلا أن حديثه عن أبي الهيثم ضعيف. وانظر ضعيف الترغيب (٩٢٣).

obeikandl.com

وهو فى المسند من حديث عبد الله بن عمرو بلفظ الجمع كما ذكره المصنف على معنى (كل) ومعنى قوله: (كل عبادك يقولون هذا) أي: إنما أريد شيئًا تخصني به من بين عموم عبادك.

وفى رواية: بعد قوله: (كل عبادك يقولون هذا) - (قل: لا إله إلا الله، قال: لا إله إلا أنت يارب، إنما أريد شيئًا تخصنى به).

ولما كان بالناس - بل بالعالم كله - من الضرورة إلى (لا إله إلا الله) ما لا نهاية له، كانت من أكثر الأذكار وجودًا، وأيسرها حصولاً، وأعظمها معنى، والعوامُّ والجُهّال يعدلون عنها إلى الدعوات المبتدعة التى ليست في الكتاب ولا في السنة.

قوله: (وعامرهن غيري) هو بالنصب عطف على (السموات)، أي لو أن السموات السبع ومن فيهن من العُمّار غير الله تعالى، والأرضين السبع ومن فيهن، وُضِعوا فى كفة الميزان ولا إله إلا الله في الكفة الأخرى، مالت بهن لا إله إلا الله.

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ أن نوحًا عليه السلام قال لابنه عند موته: «**آمرك بلا إله إلا الله، فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة، ولا إله إلا الله فى كفة رجحت بهن لا إله إلا الله، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة لقصمتهن لا إله إلا الله**»[(١)].

قوله: (في كفة) هو بكسر الكاف وتشديد الفاء، أي: كفة الميزان.

قوله: (مالت بهن) أي رجحت، وذلك لمِا اشتملت عليه من نفي الشرك، وتوحيد الله الذي هو أفضل الأعمال. وأساس الملة والدين، فمن قالها بإخلاص ويقين، وعمل بمقتضاها ولوازمها وحقوقها، واستقام على ذلك، فهذه الحسنة لا يوازنها شيء، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣]، ودل الحديث على أن لا إله إلا الله أفضل الذكر كحديث عبد الله بن عمرو مرفوعًا: «**خير الدعاء دعاء يوم عرفة وخير ما قلتُ أنا والنبيون من قبلى: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير**»[(٢)] رواه أحمد والترمذي.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ١٦٩)، حديث (٦٥٨٣)، والحاكم في المستدرك (١/ ١١٢)، حديث (١٥٤)، وهو صحيح، وانظر صحيح الترغيب (١٥٣٠)، الصحيحة (١٣٤).

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب: الدعوات، باب: في دعاء يوم عرفة، حديث (٣٥٨٥) باللفظ المذكور، وأخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٢١٠)، حديث (٦٩٦١)، بلفظ: -كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ يوم عرفة

وعنه أيضا مرفوعًا: «**يصاح برجل من أمتى على رءوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل منها مدَّ البصر ثم يقال: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتى الحافظون؟ فيقول: لا يارب. فيقال: ألك عذر أو حسنة؟ فيهاب الرجل فيقول: لا!! فيقال: بلى إن لك عندنا حسنة، وإنه لا ظلم عليك اليوم، فيُخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله. فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقال: إنك لا تُظلم، فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة**»[1].

رواه الترمذي وحسنه، والنسائى وابن حبان والحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم، وقال الذهبي في تلخيصه: صحيح.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: فالأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها، وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب، فتكون صورة العملين واحدة وبينهما من التفاضل كما بين السماء والأرض.

قال: وتأمل حديث البطاقة التى توضع فى كفة، ويقابلها تسعة وتسعون سجلاً كل سجل منها مد البصر، فتثقل البطاقة وتطيش السجلات، فلا يُعذّب، ومعلوم أن كل موحِّد له هذه البطاقة وكثير منهم يدخل النار بذنوبه.

قوله: (رواه ابن حبان والحاكم) ابن حبان: اسمه: محمد بن حبان - بكسر المهملة وتشديد الموحدة - ابن أحمد بن حبان بن معاذ، أبو حاتم التميمي البُستي الحافظ صاحب التصانيف: كالصحيح، و«التاريخ»، و«الضعفاء»، و«الثقات» وغير ذلك.

قال الحاكم: كان من أوعية العلم في الفقه واللغة والحديث والوعظ، ومن عقلاء الرجال. مات سنة أربع وخمسين وثلاثمائة بمدينة بست - بضم الموحدة وسكون المهملة-.

وأما الحاكم فاسمه: محمد بن عبد الله بن محمد النيسابورى أبو عبد الله الحافظ ويعرف بابن البيِّع ولد سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، وصنف التصانيف، كالمستدرك وتاريخ نيسابور وغيرهما، ومات سنة خمس وأربعمائة.

لا إله إلا الله... - الحديث. وهو حديث حسن، وانظر صحيح الجامع (١١٠٢)، وصحيح الترغيب (١٥٣٦).

(١) تقدم تخريجه وهو صحيح.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وللترمذي - وحسنه - عن أنس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يا بن آدم إنك لو أتيتني بقُراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة» [(١)]).

ش: ذكر المصنف رحمه الله تعالى الجملة الأخيرة من الحديث، وقد رواه الترمذي بتمامه فقال: عن أنس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«قال الله تبارك وتعالى: يا بن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا بن آدم لو بلغت ذنوبك عَنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالى، يا بن آدم، إنك لو أتيتني...»** الحديث.

الترمذي: اسمه: محمد بن عيسى بن سورة - بفتح المهملة - ابن موسى بن الضحاك السُّلمي أبو عيسى، صاحب الجامع وأحد الحفاظ، كان ضرير البصر، روى عن قتيبة وهناد والبخاري وخلق. مات سنة تسع وسبعين ومائتين.

وأنس: هو ابن مالك بن النضْر الأنصاري الخزرجي، خادم رسول الله ﷺ خدمه عشر سنين، وقال له: **«اللهم أكثر ماله وولده وأدخله الجنة»** [(٢)] مات سنة اثنتين وقيل: ثلاث وتسعين، وقد جاوز المائة، وقد رواه الإمام أحمد من حديث أبي ذر بمعناه، وهذا لفظه **«ومن عمل قراب الأرض خطيئة ثم لقيني لا يشرك بي شيئًاجعلت له مثلها مغفرة»** [(٣)].

ورواه مسلم [(٤)]، وأخرجه الطبرانى من حديث ابن عباس عن النبى ﷺ [(٥)].

قوله: (لو أتيتني بقراب الأرض) بضم القاف: وقيل: بكسرها والضم أشهر وهو ملؤها أو ما يقارب مِلأها.

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب: الدعوات، باب: في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده، حديث (٣٥٤٠)، وهو حديث حسن، وانظر صحيح الجامع (٤٣٣٨)، صحيح الترغيب (١٦١٦)، الصحيحة (١٢٧).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: الدعوات، باب: الدعاء بكثرة المال مع البركة، حديث (٦٣٨٠)، ومسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل أنس بن مالك رضي الله عنه، حديث (٢٤٨٠) دون قوله: -وأدخله الجنة-.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ١٥٣)، حديث (٢١٣٩٨) وهو صحيح، وانظر صحيح الجامع (٨١٤١)، الصحيحة (٥٨١).

(٤) أخرجه مسلم، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى، حديث (٢٦٨٧).

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢/ ١٩)، حديث (١٢٣٤٦)، والصغير (٢/ ٨٢)، حديث (٨٢٠).

قوله: (ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا) شرط ثقيل فى الوعد بحصول المغفرة، وهو السلامة من الشرك: كثيره وقليله، صغيره وكبيره. ولا يسلم من ذلك إلا من سلّم الله تعالى، وذلك هو القلب السليم كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

قال ابن رجب: من جاء مع التوحيد بقراب الأرض خطايا لقيه الله تعالى بقرابها مغفرة.

إلى أن قال: فإن كمل توحيد العبد وإخلاصه لله تعالى فيه، وقام بشروطه بقلبه ولسانه وجوارحه، وبقلبه ولسانه عند الموت، أعقب ذلك مغفرة ما قد سلف من الذنوب كلها ومنعه من دخول النار بالكلية. فمن تحقق بكلمة التوحيد قلبه أخرجت منه كل ما سوى الله تعالى: محبة وتعظيمًا، وإجلالاً ومهابة وخشية وتوكلاً، وحينئذ تُحرق ذنوبه وخطاياه كلها، وإن كانت مثل زبد البحر. انتهى ملخصًا.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى فى معنى الحديث: ويُعفى لأهل التوحيد المحض الذي لم يشوبوه بالشرك ما لا يُعفى لمن ليس كذلك. فلو لقي الموحد الذي لم يشرك بالله شيئًا ألبتة ربه بقراب الأرض خطايا أتاه بقرابها مغفرة، ولا يحصل هذا لمن نقص توحيده.

فإن التوحيد الخالص الذى لا يشوبه شرك لا يبقى معه ذنب؛ لأنه يتضمن من محبة الله وإجلاله وتعظيمه، وخوفه ورجائه وحده ما يوجب غسل الذنوب ولو كانت قراب الأرض، فالنجاسة عارضة والدافع لها قوي. انتهى.

وفى هذا الحديث: كثرة ثواب التوحيد، وسعة كرم الله وجوده ورحمته، والرد على الخوارج الذين يكفّرون المسلم بالذنوب، وعلى المعتزلة القائلين بالمنزلة بين المنزلتين، وهي الفسوق، ويقولون: ليس بمؤمن ولا كافر، ويُخلّد في النار.

والصواب: قول أهل السنة: إنه لا يُسلب عنه اسم الإيمان، ولا يُعطاه على الإطلاق، بل يقال: هو مؤمن عاص، أو مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته. وعلى هذا يدل الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة.

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: لما أُسري برسول الله ﷺ انتُهي به إلى سدرة المنتهى، فأُعطي ثلاثًا: أُعطي الصلوات الخمس، وخواتيم سورة البقرة، وغفر لمن

لا يشرك بالله من أمته شيئًا: المُقحِمات [١]. رواه مسلم [٢].

قال ابن كثير في تفسيره: وأخرج الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه والنسائي عن أنس بن مالك قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية « ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٦] » وقال: **«قال ربكم: أنا أهلٌ أن أُتقَى فلا يُجعل معي إله، فمن اتقى أن يجعل معي إلهًا كان أهلاً أن أغفر له»** [٣].

قال المصنف رحمه الله تعالى: (تأمل الخمس اللواتي في حديث عُبادة فإنك إذا جمعت بينه وبين حديث عِتبان تبين لك معنى قول: لا إله إلا الله وتبين لك خطأ المغرورين).

وفيه: أن الأنبياء يحتاجون للتنبيه على فضل لا إله إلا الله والتنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات، مع أن كثيرًا ممن يقولها يخف ميزانه، وفيه: إثبات الصفات خلافًا للمعطِّلة.

وفيه: أنك إذا عرفت حديث أنس وعرفت قوله في حديث عتبان: **«إن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله»** تبين لك أنه ترك الشرك ليس قولها باللسان فقط. انتهى.

(١) أي: الذنوب العظام التي تُقْحم أصحابها في النار أي: تلقيهم فيها. انظر: النهاية (٤/ ١٩).
(٢) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: في ذكر سدرة المنتهي، حديث (١٧٣).
(٣) أخرجه الترمذي، كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة المدثر، حديث (٣٣٢٨)، وابن ماجه، حديث (٤٢٩٩)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٥٠١)، حديث (١١٦٣٠)، وأحمد في مسنده (٣/ ١٤٢)، حديث (١٢٤٦٥)، والدارمي في سننه (٢/ ٣٩٢)، حديث (٢٧٢٤)، وحسنه الألباني في ظلال الجنة (٩٦٩).

obeikandl.com